الجزيرة والتاريخ الاسلامى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضع سنوات — ست أو سبع — زرت الحجاز وقضيت فيه أياماً أنظر وأسمع وأفكر . فرأيت أنى أصبحت أحسن فهماً للتاريخ الاسلامى والأدب العربى وأقدر على تمثل الصور والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لى قبل ذلك . ولهذا اقترحت على صديق الأستاذ الدكتور هيكل بك — لما شرع يكتب « حياة محمد » وينشرها فصولا فى السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الاسلامى من ذلك . والحجاز بلاد متحضرة ولكنى مع ذلك اهتديت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعنى وتبين ما أقصد إليه . فمن ذلك أنى دعيت فى جملة من دعوا إلى الغداء فى « وادى فاطمة » وهو واحة جميلة فى صحراء جرداء وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله فى « رحلة الحجاز » فلا أعيده هنا . ولكنه اتفق أنى ذهبت أتمشى بعد الأكل مع بعض الاخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أحدنا إن فى السرادق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقى واحد تخلف معنا معتذراً بأنه « أكل البارحة » فاستغربت قوله هذا ولكنى كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالى إلى كلامه أو أن أعيره التفاتا . ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوّف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام فى الجزيرة ، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم ابن السعود ، فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارع لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة . وأعنى به « خالدبك الحكيم » فتذكرت قول ذلك البدوى فى وادى فاطمة « أكلت البارحة » وقلت لنفسى إنى قد وقعت على الخبير فلأسأله فلن أجد أدرى منه وأعرف . فقال لى إن هذا معقول ، ولو أن البدوى قال « أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم » لما كان ذلك إلا طبيعياً . وذكر لى أن البدوى يذهب فى الصحراء ماشيا على قدميه أو راكبا ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللفاة — ويسمون العقال عقالا لأنه فى الحقيقة حبل يعقل به البعير — ويلتف بالعباءة ويتلثم ولا يكاد ينبس بحرف . فاما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذى تتطلبه الصحراء — والكلام جهد فهو إنفاق — وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه . ويظل ماضيا حتى يبلغ مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقى ماشاء من اللبن ويمضى عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم بروه وسروه وسقوه اللبن لأن مثله من ينحر لهم القوم . ثم يتفق أن يأتى قوما نحروا لضيف كريم فاذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام ، أقبل على « اللحم والأرز » من هم دونهم مقاما ، فيقعد الرجل ويهبر من اللحم ما شاء ومن الأرز ما أحب . قال صديقى « وصدقنى حين أقول لك إن هذا البدوى يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز . وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياما — عشراً أو عشرين أو أكثر أو أقل — لا يجد من الطعام إلا اللبن وقليلا من التمر أحيانا فاذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للهضم .

فلم يسعنى إلا أن أفكر فى أمر هذا البدوى الذى يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجهدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن « التمر أحيانا . إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلا . ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التى لا رفق فيها من حرب وسعى وأسفار فى الفيافى المهلكة فان مثله يعدل ولا شك ألف جندى من جنود الدولة الرومانية المتخنثة ، ولا عجب إذاً إذا كان بضعة آلاف من هؤلاء

البدو الأشداء الخشنين المعروفين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التى كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم أن يهربوا ويفروا . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربى — أعنى البدوى — فلم أجد لها قيمة . وما عسى أن تكون قيمتها عند من لايكاد يجد طعاماً أو ماء ، ومن لايكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها . أولم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى يئس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة ؟ . وحدثنى غير واحد ممن لقيت فى الحجاز أن المرء — بعد المعركة — يجىء إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به ، ويتفق أن يكون قد قتل فى المعركة ، فلا يزيد على أن يقول لك « ذُبح » يعنى « ذُبح » ، ولكنه يأكل الذال فى النطق فلا تسمع منه إلا « بُح » . . ثم لادمع ولا أسف ولا حسرة ولا لهفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرن به الموت . فكأن حياة البدوى الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفتر وقعه . وما قيمة القتل فى حرب أو نحوها والحياة معرضة للبوار والتلف فى كل ساعة ؟ ؟ وتصور كيف يكون اقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ماعسى أن يكون من اقبال غيرهم من أبناء المدنية والترف والبذخ على القتال ! . إن الذى يقبل عليه البدوى ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التى كان يحياها . وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الحفاة الذين لايملكون إلا السيف والرمح والايمان المستغرق ، اكتسحوا دولا كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً ؟ .

ولست ترى فى الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا . والناس يعيشون فى هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شىء بعد ذلك ، لأنهم لايعرفون المغالاة بقيمة الحياة إذ كانت لاقيمة لها عندهم . ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم مقبرة مثل مقبرة « جنوى » التى يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها ، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التى انحدرت على العالم المتحضر فى زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته . ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب ، بل قلبتها عربية صرفاً . وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية — كما لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم — لأن الفرس كانوا أقل تخنثاً من البيزنطيين . ولست مؤرخاً ولكنى أظن ان هذا هو السبب ، يضاف اليه ان البلاد التى فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف مافتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت أجنبية لارومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومى فى بلاد فارس طبيعى ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً . لأنه لم يكن هناك فى الأصل . ولهذا بقيت فارس شوكة فى جنب الدولة العربية .

وقد زرت العراق وسورية — أوكما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام — كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل فى الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولا ثم إلى العراق ، فان طبيعة الأراضى الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون مقر دولة مترامية الأطراف عظيمة الرقعة . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقى الحجاز مقر الدولة العربية فى صدر الاسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعى لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما فى اليد إلى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هى مركز الدولة . أما فى زمن أبى بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر فى قلب الجزيرة أولا قبل إمكان التفكير فى

غيرها . وأما فى زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد فى عهده ، ولكن الفتح يستدعى التمكين والتوطيد أولا . ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبى عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة ، حتى لو كان كل شىء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش فى الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى . وأما زمن على وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية فى مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التى شادها بفضل ما تولى منها فى الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة فى غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف ، وفرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هى ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة . ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً فى قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة فى الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح . وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة . وقد يتغير حال الجزيرة فى المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة فى سبيل الحياة . ومهما يبلغ من غناها فى المستقبل فانها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على أن كلامنا على الماضى الذى لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد فى الدنيا لا على المستقبل الذى هو غيب .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

. . . مشى «عبدالله» حذراً ، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش ، فيقطعوا عليه سبيله ، فلم ير أحداً . وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا فى مجالسهم كعادتهم فى كل مساء فاطمأن وسار قدما ، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون . واتسع الوادى أمامه وانفرج ، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ؛ ونظر . . فراقه منظر الغروب . على هذه السفوح والذرى ، وأحس بجلال الموقف ، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق . وهذه الصفرة التى تعم كل شىء ، فنسى غايته ووقف ينظر . . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادى ، وتبدو الكعبة قائمة فى وسطها ، والأصنام التى تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود . . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا فى الغار . وذهب يتحسس لهما خبر قريش . ويعلم علمهما . ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق (١) . . فخاف أن يكون قد أصابهما شر ، فاغمض عينيه عن هذه المشاهد ، ومضى فى طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت فى المجد والظفر ، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هى مخومة فى صندوق من الصخر . على السهول والجنان والمدائن التى أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودها اليها وانصرفت عن الراية التى دفعها اليها محمد ، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب

(١) انظر كتابى « أبو بكر الصديق » صفحة ٩٠